رسالة القرآن

نشرة فصليّة تعنى بالشّؤون القرآنيّة
تصدرها دار القرآن الكريم

دار القرآن الكريم

العدد الحادي عشر

رجب، شعبان، رمضان

١٤١٣هـ

المراسلات:

الجمهورية الاسلامية الايرانية

قم-دارالقرآن الكريم

ص.ب ٣٧١٨٥/١٥١

- النشرة متخصصة بالدراسات والشؤون القرآنية
- ترحب رسالة القرآن بكل نتاج ينسجم واهتماماتها القرآنية.
- ترتيب المقالات يخضع لاعتبارات فنية.
- ما يرد في المقالات من افكار يتحمل الكاتب مسؤوليتها
- النشرة غير ملتزمة باعادة المواد التي تتلقاها للنشر.

الثمن: ٥٠ توماناً أو مايعادلها

هدية
الشهيد الشيخ مهدي العطار
لمكتبة الروضة الحيدرية

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم: ١١٢٩
التاريخ: ١٨/١١/٢٠٠٦

من ملامح رؤية المستشرقين للقرآن

الاستاذ عبدالجبار الرفاعي

الاستشراق اختراع أوروبي، يتصرف بخامات شرقية، ويتحرك بأدوات غربيّة[1] لخدمة المصالح الاوربية، وتعزيز هيمنة الغرب على الشرق، وتأكيد تفوقه وسيادته، وهو التعبير الواضح للمركزية الغربية، القائمة على نفي الآخر وليس الاستشراق ـ كما يحلو للبعض أن يقول ـ خطاب علمي ومعرفي موضوعي عن الشرق، أنجزه الباحثون الغربيون، الّذين تخصصوا بدراسة المجتمعات الشرقية وتراثها، وظلوا أوفياء لتخصصهم طوال حياتهم، حيث حرصوا على تصنيف الكتب، والتنقيب عن الآثار الشرقية، واصدار الدوريات، وعقد المؤتمرات والندوات، والترحال بين البلدان الشرقية، وتأسيس مراكز البحوث، والمعاهد الدراسيّة، لأجل ذلك.

ويمكن ان نعرف مدى سعة وكثافة انتاج الاستشراق، اذا لاحظنا انه نُشر في الغرب أكثر من(٦٠) ألف كتاب، في قرن ونصف «١٨٠٠ـ١٩٥٠» مما يعنى بالشرق العربي وحده، هذا فضلاً عن(٤١٤٧٠) مقالة وبحث، نُشرت حول الاسلام في الدوريات الغربية، منذ مطلع القرن الحالي. في حوالي ستين عاماً(١٩٠٦ـ١٩٦٥)، كما وثق ذلك(جي. دي. بيرسن J.D.Pearson) مدير مكتبة كلية الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن، في كتابة: index islami-cus الذي نشره في لندن عام ١٩٥٨، ثمّ أتبعه بملحقين نُشرا عام ١٩٦٢ و١٩٦٧.

وان كنا لانعدم استثناءً لهذا الكلام في المستشرقين ـ وهم الأقل ـ الّذين تغلبوا على

سلطة المنهج الاستشراقي في الحديث عن الشرق.

إشارة إلى ميلاد الاستشراق

ذهب بعض الباحثين إلى ان الاستشراق نشأ في القرن التاسع (الميلادي) في الأندلس، حيث تمثل في إقبال المستعربين من الاوربيين على دراسة العربية وجمع المعلومات عن المسلمين، ثمّ ترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية.

واستدل على ذلك بوجود مدونات اسبانية محملة بتأثيرات عربية واضحة في مضمونها، ممّا يثبت أن مؤلفيها أخذوا مادتهم التاريخية، وقواعدهم الحسابية، من مصادر عربية، ومن تلك المدونات (مخطوطات مختلفة وجدت في - اوبيط - Oviedo، وهي محفوظة في مكتبة الاسكوريال وقد احتفظ لنا القديس أولوجيوس القرطبي المتوفى سنة ٨٥٩ م، ونقلت إلى أوبيط عام ٨٨٤ م.

كما نجد الطريقة ذاتها في (المخطوطة المتنبئة Cronica Albeldenso) التي كتبها مؤلف مجهول عام ٨٨٣ م، وفي (مخطوطة البلدة Crsnicd Al-beldenso)، التي كتبها الراهب فيجيلا Vigila، وأتمها عام ٩٧٦ م.[٢]

فيما ذهب آخرون إلى ان بداية الدراسات العربية الاسلامية في أوروبا، ترجع إلى القرن الثاني عشر، ففي عام ١١٤٣ م تمت ترجمة القرآن لأول مرة إلى اللغة اللاتينية بتوجيه من الأب (بيتروس فينيرا بيليس) رئيس دير كلوني، وكان ذلك على أرض إسبانية، وفي تلك الفترة كذلك وضع أول قاموس عربي لاتيني.[٣]

إلا انه من المؤكد ان بعض الرهبان من البلدان الأوروبية قصدوا الاندلس، في إبّان عظمتها ومجدها، ودرسوا في مدارسها، وترجموا القرآن، وبعض الكتب العلمية إلى لغاتهم، ودرسوا على علماء مسلمين مختلف العلوم، وخاصة الفلسفة والطب والرياضيات، ومن أوائل هؤلاء الّذين وصلتنا أسماؤهم الراهب الفرنسي (جربرت)، الّذي أصبح فيما بعد بابا لكنيسة روما عام ٩٩٩ م، و(بطرس المحترم ١٠٩٢ - ١١٥٦ م)، و(جيراري كريمون ١١١٤ - ١١٨٧ م)، وبعد ان عاد هؤلاء الرهبان إلى بلادهم نشروا ثقافة العرب ومؤلفات أشهر علمائهم، ثم أُسست المعاهد الّتي تعنى بالدراسات العربية أمثال مدرسة (بادوي العربية)، وأخذت الأديرة، والمدارس الغربية، تدّرس مؤلفات العرب المترجمة إلى اللاتينية، واستمرت

الجامعات الغربية تعتمد على كتب العرب، وتعتبرها المراجع الأصلية للدارسة قرابة ستة قرون.(٤)

بيد ان حركة الاستشراق لم تكتمل لحظة ميلادها، وانما تدرجت في نموها وتطورها عبر مراحل، حتى ان الدراسات والتوجّهات الأكثر أهمية وفعالية، لم تبدأ إلا مع القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، وأما ماسبق ذلك فكان تمهيداً جاداً(٥)، وإرهاصات أولى لانبثاق هذه الحركة التي ترعرعت عدة قرون، منقبة في التراث والانتاج الحضاري الشرقي عن تلك المرآة التي اصطنعتها وأرادت ان ترى الشرق من خلالها.

من ملامح المعرفة الاستشراقية

لم تولد المعرفة الاستشراقية في مناخ محايد، وانما تشكلت في ظل الصراع الحضاري الّذي نشأ بين الشرق الاسلامي من جهة، والغرب النصراني من جهة أخرى، وماجسدته الحروب الصليبية الّتي تواصلت حوالي مائتي عام، من تعبير دموي عنيف عن هذا الصراع.

وممّا يؤكد هذه الحقيقة ان اللاهوت الغربي، كان يجسّد القاعدة العلمية والتنظيرية لكل ثقافات، وديانات الغير(... فلقد كان أساتذة اللغات الشرقية، العبرية وأخواتها، واليونانية، كانوا برمتهم من رجال اللاهوت، أو انهم انطلقوا منهم، ـ وان ـ هذه التبعية للاهوت لم تمكن الاستشراق في القرنين السابع والثامن عشر من التوصل إلى نتائج علمية ذات قيمة مستقلة إلا لماماً)(٦) حسب شهادة بروكلمان.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد أضحت الأساطير المترجمة إلى اللاتينية واللغات الأوروبية الأخرى عن الشرق، أهم مصدر للتعرف على الشرق، والاستعداد لقصده والترحال فيه، كما نلاحظ ذلك في قصص(ألف ليلة وليلة) التي ترجمت إلى أغلب لغات أوروبا منذ زمن مبكر، وكانت من أكثر المؤلفات العربية انتشاراً، وأوسعها دراسة وترجمة، وكان المستشرق الفرنسي(أنطوان جالان Galland Antoine ١٦٤٦ ـ ١٧١٥)، من أوائل الّذين ترجموا هذا الكتاب إلى اللغة الفرنسية، ونشره في(١٢) مجلداً مابين(١٧٠٤ ـ ١٧٠٨)(٧)، وقد أُعيد طبع هذه الترجمة آكثر من سبعين مرة، هذا فضلاً عن عدد كبير من الترجمات الأخرى الّتي قال عنها أحد الباحثين:

(ولن يكون بامكاننا أن نأتي بلائحة

كاملة أوشبه كاملة ـ لترجماتها ـ لأن ذلك يستوعب مجلدات بكاملها، وحسبنا هنا ان نشير إلى أهم ما نُقل منها إلى أهم اللغات الأوروبية، مع العلم ان الترجمة الواحدة أُعيد طبعها مرات كثيرة تصل إلى الثمانين». (٨)

وربما لانعدو الحقيقة إذا قلنا بأن كتاب(ألف ليلة وليلة) يعتبر ـ في نظر الغربيين آنذاك ـ أهم كتاب يصف المجتمعات الشرقية، ويعكس حقيقة علاقاتها، ويحددطبيعة ثقافاتها؛ ولذا جعل الافتتان بهذه القصص العديد من الأوروبيين يخلطون بين الشرق الحقيقي، وشرق هذه القصص، فالليدي(ماري مونتاغو Mary Montagu) مثلاً، اعتقدت أن القصص هي وصف دقيق للمجتمع الشرقي الّذي لامست أطرافه، بصفتها زوجة لسفير بريطاني، وكتبت بسذاجة مفرطة:

«ان هذه القصص كتبها مؤلف محلي، ولذلك فهي تصور عادات الناس هنا تصويراً حقيقياً».

وبذلك تداخل الخيال والواقع عند القاري الغربي، حتى توهم أنهما شيء واحد، أما«غوبينو Gobineau) الفرنسي، الّذي بدأ سفره وهو تحت تأثير الأفكار نفسها، فقد كتب: كلّما خطونا خطوة في آسيا، ازداد اقتناعنا ان كتاب ألف ليلة وليلة، هو الأكثر دقة وصحة، وكمالاً، من سائر الكتب الّتي وصفت أقطار هذا الجزء من العالم». (٩)

تلك هي خلفية العقل الغربي، ومصادر تلقى معرفته عن الشرق، الّتي تكون طبقاً لها وعيه عن هذا الجزء من العالم، وبذلك عندما عمل الغرب على توثيق الشرق «النقيض، ذلك العدو»، فانه ـ كما أشار ادوارد سعيد ـ انتهى إلى توثيق نفسه، ومع ان قصص الرحلات في انكلترا الفكتورية عكست خصوصية كلّ فرد من اولئك الرحالة، إلاّ انها كانت بشكل رئيسي تكراراً لأفكار موروثة. (١٠)

واستمر الباحث الغربي يكرر ذاته في وعي الشرق، منذ ان بدأت طلائع الدراسات العربيه الاسلامية هناك، ومنذ الطلائع الأولى للرحالة الغربيين إلى بلاد الشرق، فلم تبرح وعيه آناماً تلك الصورة، الّتي ابتنى اطارها على أساس تزييف اللاهوت الغربي لديانات وثقافات الغير، ومابثته الأساطير ـ ألف ليلة وليلة وغيرها ـ من أفكار خيالية عن تلك البلاد وانسانها، فعند ما كان الغربيون يذهبون إلى الشرق كانت تلك«أي الصورة المشوهة للشرق» هي الصورة الّتي يبحثون عنها، فينتقون

مايرونه بعناية، ويتجاهلون كلّ مالاينجسم مع الصورة الّتي كونونها سابقاً ـ حسب تعبير مكسيم رودنسون ـ.(١١)

وبتعبير آخر:

ان المعرفة الاستشراقية التي أفرزها العقل الغربى، لم تعد معرفة علمية موضوعية ـ كما يحلو للبعض ان يقول ـ، وانّما صارت سلطة استطاع الغرب من خلالها ان يكرس حالة التبعية له في ديارنا، حتى في حقل الدراسات والأبحاث الّتي ما انفكت تتحرك في ضوء المتطلبات الغربية، وأضحى عدد كبير من الباحثين من أبناء هذه الديار في أسر هذه السلطة المعرفية، كما وصف ذلك المفكر المسلم مالك بن نبي في قوله:

«إن الأعمال الادبية لهؤلاء المستشرقين، قد بلغت في الواقع درجة من الإشعاع لانكاد نتصورها، وحسبنا دليلاً على ذلك أن يضم مجمع اللغة العربية في مصر بين أعضائه عالماً فرنسياً، وربما أمكننا أن ندرك ذلك إذا لاحظنا ان عدد رسالات الدكتوراه، وطبيعة هذه الرسالات الّتي يقدمها الطلبة السوريون والمصريون كلّ عام إلى جامعة باريس وحدها، وفي هذه الرسالات كلها يصرون ـ وهم أساتذة الثقافة العربية في الغد وباعثو نهضة الاسلام ـ يصرون كما أوجبوا على أنفسهم، على ترديد الأفكار الّتي زكاها أساتذتهم الغربيون، وعن هذا الطريق أوغل الاستشراق في الحياة العقلية في البلاد الاسلامية، محدداً بذلك اتجاهها التاريخي إلى درجة كبيرة».(١٢)

من الجهود الاستشراقية حول القرآن

يعود اهتمام الغربيين بالقرآن الكريم ترجمة، وطبعاً، ودراسة إلى البواكير الأولى لتعرفهم على معارف المسلمين، حيث أشرنا فيما سبق إلى ان بعض الرهبان الأوروبيين قصدوا الأندلس، ودرسوا في مدارسها، وترجموا القرآن، وبعض الكتب العلمية إلى لغاتهم.

بيد ان أول وأقدم ترجمة كاملة ـ معروفة ـ للقرآن، هي تلك الّتي دعا اليها ورعاها «بطرس المحترم» رئيس دير كلوني وتولاها بطرس الطليطلي، وهرمن الدماشي، وروبرت كينت، بمعاونة عربي مسلم يدعى «محمّد» ولايعرف له لقب ولاكنية ولا أي اسم أخر، وتمت هذه الترجمة في ١١٤٣، وطبعت في بازل «سويسره» عام ١٥٤٣.(١٣)

واحتمل بعض الباحثين ان «محمّداً»

هذا، الّذي ذكر اسمه في هامش أحدى النسخ الخمسه لهذه الترجمة، هو شخصية وهمية، حيث دأب القوم على وصف بعض الكتب بأن مؤلفها مسلم ارتد إلى المسيحية، لاعطاء الكتاب توثيقاً أكبر، وهي حيلة طالما استعملوها، وخصوصاً عند ترجمة القرآن الكريم. فكثيراً ماكانوا يدّعون ان الترجمة عن النص العربي في الوقت الّذي لايعرف فيه المترجم اللغة العربية.(١٤)

أما أول طبعة للقرآن في نصه العربي، فهي تلك الّتي تمت في البندقية في وقت غير محدد بالدقة، ولكن المرجّح هو ان تاريخها هو سنة ١٥٣٠ تقريباً، لكن جميع النسخ الّتي طبعت أحرقت، وكانت طبعة كاملة لكل القرآن، ولم يعثر لها على أثر حتى الآن، وأقدم من ذكرها هو «إرپنيوس» في كتابه «مباديء اللغة العربية، ليدن ١٦٢٠».(١٥)

أما أول طبعة للنص الكامل للقرآن وبحروف عربية، وانتشرت ولايزال توجد منها نسخ في بعض مكتبات أوروبا، فهي تلك الّتي قام بها الكاهن الألماني «ابراهام هنكلمان Abraham Hinckel-mann ١٦٩٥ ـ ١٩٥٢»، في مدينة هامبورج بألمانيا، في مطبعة Schltzio Achilleriana، في سنة ١٦٩٤، وتقع في ٥٦٠ ص.(١٦)

وفيما يخص فهارس القرآن، فقد وضع المستشرق الألماني غوستاف فلوجل(١٨٠٢ـ١٨٧٠)، فهرساً أبجدياً لكلمات القرآن الكريم، مع ذكر رقم السورة ورقم الآية الّتي ترد فيها، وأسماه «نجوم الفرقان في أطراف القرآن، وطبع في ليپتسک عام ١٨٤٢، وأُعيد طبعة فيها عام ١٨٩٨.(١٧)

وهذا الكتاب هو الّذي اعتمده محمّد فؤاد عبدالباقي وجعله أساس معجمه «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن» كما أخبرنا هو بذلک بقوله:

(وإذ كان خير ماأُلف وأكثره استيعاباً في هذا الفن، دون منازع ولامعارض، هو كتاب «نجوم الفرقان في أطراف القرآن» لمؤلفة المستشرق فلوجل الالماني، الّذي طبع لأول مرة عام ١٨٤٢ ميلادية، فقد اعتضدت به وجعلته أساساً لمعجمى، ولما أجمعت العزم على ذلک راجعت معجم فلوجل مادة مادة على معاجم اللغة وتفاسير الائمة اللغويين، وناقشت مواده، حتى أرجعت كل مادة إلى بابها، . . .).(١٨)

هذه نماذج من الأعمال الّتي نهض بها المستشرقون فيما يتعلق بالقرآن الكريم،

وقد تتابعت أعمالهم حول القرآن في حقول متعددة، حيث تجاوزت ترجمات القرآن والأعمال حوله عدة آلاف، ترجم فيها إلى أكثر من مائة لغة، فضلاً عن الدراسات والابحاث الّتي لم تزل تصدر بزخم كثيف في السنوات الأخيرة،

وممّا ينبغي الاشارة إليه ان الاستشراق الألماني قام بتأسيس «معهد ميونيخ للأبحاث القرآنية» في جامعة ميونيخ، وهو معهد خاص بالدراسات القرآنية، وفريد من نوعه في العالم آنذاك، إذ كان يضم:

١ـ أهم مايوجد من المراجع المطبوعة، وخاصة العربية التي تتناول تفسير القرآن الكريم، والعلوم القرآنية، والقراءات.

٢ـ صوراً عن المخطوطات الّتي تتناول هذا الموضوع، من جميع المكتبات في العالم.

٣ـ صوراً عن النسخ المخطوطة من القرآن الكريم. من مختلف العصور، من القرن الأول للهجرة حتى القرن الرابع عشر.

٤ـ علبة خاصة لكل آية، يوضع فيها تفسير تلك الآية كما جاء به المفسرون، منذ عصر الصحابة حتى اليوم، والتفاسير مرتبة حسب الأقدمية.

وكان يشرف على هذا المعهد المستشرق برجستريسر (١٨٨٦ـ١٩٣٣)، ثمّ خلفه المستشرق بريتسل (١٨٩٣ـ١٩٤١).

وقد بذلت جهود كبيرة وانفقت أموال طائلة في تحضير هذا المعهد، ولكن دمرته الغارات الجوية على مدينة ميونيخ أثناء الحرب العالمية الثانية.[١٩]

* * *

ان توثيق الجهد الاستشراقي في حقل الدراسات القرآنية، يحتاج إلى كلام طويل تضيق عن استيعابه مجلدات عديدة، لأن انتاج المستشرقين تواصل عدةقرون في هذا الحقل، وقد لانعدو الحقيقة إذا قلنا بأن ترجمات القرآن، وعلومه، كالقراءات والمصاحف... وغيرها، استأثرت باهتمام طائفة كبيرة من عظماء المستشرقين، ولم تزل هذه الدراسات موضع اهتمام الباحثين الغربين حتى اليوم.

تقويم المنهج الاستشراقي في الدراسات القرآنية

ألمحنا سلفاً إلى مصدري الإلهام الأساسين للرؤية الاستشراقية، حين حاولنا ان نتأمل في نحو تشكيل المعرفة الاستشراقية، وكيف ان اللاهوت النصراني

الذي تراكم فيه الحقد، واختزن الروح العدوانية الثأرية تجاه الشرق وانسانه المسلم، كان هذا اللاهوت الرافد الأول لتشكيل رؤوية الغرب إزاء الشرق، ثمّ ألهمت الأساطير المترجمة عن الشرق الانسان الغربي، صوراً خيالية أخرى عن ذلك العالم.

من هنا توحدت هذه الرؤوية أزاء الشرق، وان اختلفت بالنسبة لأشياء أخرى، ولم يتمكن انتاج المستشرقين ان يخترق جدار المرآة الّتي يرى الشرق بواسطتها، إلا استثناءً، ولذلك لم يطرأ تحول أساسي في منهج البحث لديهم بالرغم من تغير الأزمان، واختلاف البلدان الّتي ينتسبون اليها.

في ضوء ذلك لايصح ان نقر التقسيم الّذي ذهب إليه بعض الدارسين، بتصنيف الاستشراق إلى مدارس، بحيث نسمي بعضه استشراقاً انجليزياً، وبعضه الآخر فرنسياً، أو ألمانياً، أو هولندياً، صحيح أن الدارسين يسمون بأسماء البلدان التي ينتمون اليها، غير أن النتيجة الّتي توصلنا إليها ـ كما يقول عمر لطفي العالم ـ باستعراض طرق البحث والتفكير والمحصلات، تنفي صحة هذا التقسيم، واذا كان لابد من وجود اختلاف، فليس مرده إلى الجغرافية، بل إلى التناوب في تسيير عجلة الاستشراق، وبعبارة أخرى، فانه ما ان وقفت مدرسة المستشرق دي ساسيه في باريس عن العطاء، حتى استنأنفته مدرسة تيودور نولدكه في شتراسبورج، أو مدرسة هورجرونيه في هولندا[٢٠]، أما الموضوعات فتوشك ان تكون متطابقة مكملة، فاذا عرفنا أن الاتصال عبر المؤتمرات السنوية والدوريات المنتظمة لم ينقطع أبداً، جازلنا القول:

إن سُحنة الاستشراق واحدة، لاسيما في وسائلها وغاياتها المتجهة نحو القرآن الكريم.[٢١]

ومن المناسب هنا ان نشير إلى شبهتين تكررت إثارتهما بأساليب مختلفة، من قبل المستشرقين أزاء النبي الأمين صلّى اللّه عليه وآله وسلّم والقرآن الكريم، ومن يراجع آثارهم يجد صياغات متنوعة لهاتين الشبهتين، فقد تُذكر الشبهة في مؤلف أحد المستشرقين الأوائل بنحو ما، ثمّ يلتقطها الآخر الّذي يأتي بعده، فيعيد انتاجها ويحاول إثارتها بكيفية جديدة، وكذلك يفعل الثالث المتأخر عنهما، بيد أن محور تلك الشبهة هو هو، وان تنوعت أساليب التعبير عنها.

وتتلخص الشبهة الأولى في القول:

ان للبيئة الفضل في إفراز روح وفكر الرسالة الاسلامية، كما صرح بذلك أحد المستشرق بقوله:

(يخيل إليَّ أنه من العبث فهم محمّد بعيداً عن زمنه وبيئته)(٢٢) ومن الغريب ان يتجاهل هذا الزعم، ان الاسلام كان ثورة حقيقية على الجاهلية، وان الاسلام عبر عن مشروع حضاري يتناقض مع الديانات الوثنية الّتي كانت سائده فى عصر البعثة، وبالذات في الجزيرة العربية ـ مهبط الرسالة الاسلامية ـ ولذلک دخل الاسلام مرحلة الصراع مع الوثنية السائدة آنذاك في مكة المكرمة، هذا الصراع الّذي اشتد بعد سنوات قليلة من عمر الرسالة حتى اضطر المسلمون معه إلى اللجوء إلى أرض أخرى جديدة، لتكون قاعدة ومنطلقاً للدعوة الجديدة، ومع ذلک لم تتخلَ الوثنية عن عدوانها وكيدها لهذه الدعوة الوليدة، إلى ان بلغ الصراع ذروته في المعارك الضارية الّتي خاضها المسلمون مع الوثنيين، واستمرت طيلة فترة حياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم، ولم تتوقف بعد وفاته.

ان هذا الصراع الدموي الّذي تواصل لسنوات عديدة، بين الاسلام والوثنية، هو الدليل الأكيد على ان الاسلام هو النقيض الطبيعي للبيئة الوثنية المعروفة، وليس من الصحيح ان يولد النقيض من رحم نقيضه، بمعنى انه لايمكن ان نفهم، بأن البيئة العقائدية الوثنية يمكن ان تثمر عقيدة توحيديه خالصة، هذه العقيدة الّتي عبرت عن نفي تام للوثنية.

أليس هذا القول أشبه بمن يدعي بأن مصدر النور هو الظلام؟!

قال تعالى: «قد جاءكم من اللّه نور وكتاب مبين يهدي به اللّهُ مَن اتّبع رضوانه سُبُلَ السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بأذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم».

اما الشبهة الثانية فتتلخص في حرص المستشرقين على تصيد النظائر والمتشابهات بين القرآن والكتب الأخرى، واتخاذها ذريعة للقول بتلقي الرسول الأمين صلّى الله عليه وآله وسلّم مادة القرآن الكريم من تلک الكتب، كما نلاحظ ذلک في الكثير من مؤلفات المستشرقين حول القصص القرآني، فقد نوه المستشرق الألماني(اهينز شبيار) في كتابه الصادر عام ١٩٣١ م تحت عنوان«القصص التوراتي في القرآن»، نوه في مقدمة هذا الكتاب بما سمّاه أعمالاً أصولية ومرتكزات علمية على مدار السنوات المائة الأخيرة ـ وهي مؤلفات المستشرقين: شبرنجر، موير، جريم،

نولدكه، بوهل، شفاللي- وعلل شبييار حكمه هذا بأن أصحاب هذه الأعمال خصصوا النصيب الأوفر من تلك الدراسات للحديث عن شخصية الرسول، كما قال:

(إن هذه الدراسات دلت صراحة على التصورات غير العربية الّتي«اقتبسها» الرسول من غيره، سواء في مواجهاته التشريعية أو السياسية، وذلك في ضوء الدراسات النقدية الّتي وضع أسسها المستشرق المعروف إجناس جولدتسيهر من خلال دراسته للسير).(٢٣)

ان هذه القرآءة الارجاعية لما تضمنه القرآن الكريم، ومحاولة اكتشاف الأصول في موروث كتابي أخر، هي أحد أبرزملامح الرؤية التقليدية للاستشراق في تعاملة مع التراث الاسلامي، بل التراث الشرقي عامة، فمثلاً الفلسفة الاسلامية تغدو فلسفة يونانية مكتوبة بحروف عربية -بحسب زعم المستشرق الفرنسي ارنست رينان- والتشريع الاسلامي هو القانون الروماني، و... الخ.

لقد كانت هذه القراءة مظهراً لتجلي الوعي الاستشراقي، الذي ولد في أحضان اللاهوت الكنسي، والّذي عمد إلى تبني خطاب تضليلي في الحديث عن القرآن الكريم والتراث الاسلامي، لأنه مما لاشك فيه ان تاريخ الانسانية تاريخ مشترك، والمنعطفات الكبرى في هذا التاريخ شملت كل أفراد النوع الانساني آنذاك، حيث كانت الأرض هي المسرح الطبيعي لتلك الحوادث، كحادث الطوفان الّذي عمّ الأرض في عصر النبي نوح عليه السّلام.

من هنا تكرر ذكر الطوفان مثلاً، في الكتب القديمة، بل في الألواح الطينية الّتي عُثر عليها في آثار الأمم القديمة كالسومريين وغيرهم.

فلماذا أضحى ذكر هذا الحادث في القرآن اقتباساً من التوراة؟!

أليست هذه محاولة متعمدة لطمس حقيقة الوحي الالهي بالقرآن؟!

ونضيف على ذلك انه لو حاولنا ان نقارن بين القصص القرآني وغيره، فسنلاحظ تميز القصص القرآني بشكل واضح وتفرده عن ما جاء في«الكتاب المقدس»، كما دلّل على ذلك العلامة المحقق مالك بن نبي في دارسته المقارنة حول«قصة يوسف» في القرآن والكتاب المقدس، فاكتشف بأن(مجرد التأمل السريع يمكن أن يكشف لنا عن عناصر خاصة تميز كلتيهما على حده، فرواية القرآن تنغمر باستمرار في مناخ روحاني،

نشعر بـه في مواقف وكلام الشخصيات الّتي تحرك المشهـد القرآني، فهناك قدر كـبير من حرارة الروح في كلمات يعـقوب ومـشاعـره في القرآن، فـهو نبي أكثـر منه أباً، وتبرز هذه الصفـة خصـوصاً في طريقـته في التـعبير عن يأسـه عـند مـا علم باخـتـفـاء يوسف، كـمـا تتجلى في طريقته في تصوير أمله حين يدفع بنيه إلى أن يتحسسوا من يوسف وأخيه.

وامرأة العـزيز نفسـها تتـحدث في رواية القرآن بلغة تليق بضمير إنساني وخزه الألم، وأرغـمتـها طهـارة الضـحـيـة ونزاهتـهـا على الاستسلام للحق، فإذا بالخاطئة تـعترف في النهـاية بغلطـتـهـا، وفي السـجن يتـحـدث يوسف بـلغـة روحـيـة مـحلقـة، سـواء مع صـاحـبيه، أم مـع السـجان، فـهـو يتـحدث بوصفه نبياً يؤدي رسالته إلى كل نفس يرجو خلاصها... والرواية الكتـابية تكشف أيضاً عن أخطـاء تاريخـيـة تثـبت صـفـة«الوضع التـاريخي» لـلفـقـرة التي نناقـشـهـا، فـمـثلاً فـقـرة«لأن المصـريين لايجـوز لهم أن يأكلوا مع العـبرانيين لأنه رجس عند المصـريين»، يمكننا التأكد بأنهـا من وضع النساخ الميالين إلى أن يذكـروا فترة المحن الّتي أصـابت بني اسرائيل في مصر، وهي بعد زمن يوسف.

وفي رواية الـتـوراة اسـتـخـدم أخـوة يوسف في سـفرهم«حـميراً» بدلاً من«العـير» في رواية القـرآن، على حـين أن اسـتـخـدام الحمير لايمكن أن يتسنى للعبرانيين إلا بعد اسـتقـرارهم في وادي النيل، بعـد ما صـاروا حضريين، إذ الحـمار حيوان حضـري عاجز في كل حـالة عن أن يـجـتـاز مـسـافـات صـحـراوية شـاسـعـة، لكي يجيء من فلسطين، وفضلاً عن ذلك فان ذرية ابراهيم ويوسف كـانوا يعـيشـون في حـالة الـرعـاة الرحل، رعاة المواشي والأغنام...). (٢٤)

هكـذا بدالنا الموقف الاسـتـشـراقي المتـحـيـز من القـرآن الكـريم، هذا الموقف الّذي يكاد ان يكون موقـفاً عـاماً من النادر ان نجد من أفلت منه من أولئك الباحثين، فهذا شيخ المستشرقين«تيـودور نولدكه ١٨٣٦ ـ ١٩٣٠» مؤلف أحد أهم الكتب في تاريخ الاستشرق حـول القرآن، وهو كتـابه«تاريخ القرآن»، والّذي وصفه الدكتور ميشال جحا بقوله: «.. لقد رفع نولدكه لواء الاستشراق الألماني فـترة تزيد على نصف قـرن، هذا، وتبـقى كلمـة أخـيـرة في إنصـاف هذا العـالم الجليل، هـي انه حـاول فـي كل مـاكـتب أن يكون مثـال العالم المتـجرد العـقلاني، فلم يتجنَ فـي أبحاثه على الاسـلام، ولـم يحاول أن يدّعي معرفة أشياء لم يكن يعرفها، ولهذا جاءت آراؤه واضحة جليةً، وخـاضعة لصفة التجرد، بعيدة عن الهوى والتضليل». (٢٥)

فهل كان متجرداً عقلانياً حين وصف النبي الأمين صلّى اللّه عليه وآله وسلّم بأنه: «صائغ غير موهوب لسور قرآنية مشوشة الاسلوب»؟![26]

أم انه هو الأخر ضحية الوعي الغربي المنكوس حول الاسلام والقرآن، الّذي انبث في ذلك الركام الهائل من الأبحاث الّتي أنجزها الباحثون الغربيون حول الاسلام...؟!

الهوامش

(١) العالم، عمر لطفي. المستشرقون والقرآن. مالطا: مركز دراسات العالم الاسلامي، ص٢٧.

(٢) العرفان مج٧٤: ع٧، ٨(٩-١٠/ ١٩٨٦م) ص٥٦، عن فيرنيه، جون في: تراث الاسلام، ٣: ١٦٩.

(٣) جحا، د. ميشال. الدراسات العربية والاسلامية في أوروبا. بيروت: معهد الانماء العربي، طه ١، ١٩٨٢، ص١٨.

(٤) ن. م: ١٨.

(٥) العالم، عمر لطفي. المستشرقون والقرآن: ٢٨.

(٦) ن. م: ٢٩ عن: Brockelmann, mor-genlaendishe, S.S.3

(٧) جحا، ميشال. المصدر سابق: ٢٢.

(٨) حمادة، د. محمّد ماهر. رحلة الكتاب العربي إلى ديار الغرب. بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٩٢م، ٢: ٢٠١١.

(٩) قباني، رنا. أساطير أوروبا عن الشرق. ترجمة: صباح قباني. دمشق: دارطلاس، ١٩٨٨م، ص٥٦.

(١٠) ن. م: ٢٦.

(١١) رودنسون، مكسيم. تراث الاسلام، ١: ٨٠.

(١٢) بن نبي، مالك. الظاهرة القرآنية. ترجمة: عبدالصبور شاهين. بيروت: دارالفكر، ص٥٤، ٥٥.

(١٣) بدوي، د. عبدالرحمن. موسوعة المستشرقين. بيروت: دارالعلم للملايين، ط١، ١٩٨٤م، ص٣٠٦

(١٤) المعايرجي، د. حسن. «المحرّفون للكلم: الترجمات اللاتينية الأولى للقرآن الكريم وتأثيرها على الترجمات باللغات الأوروبية». مجلة المسلم المعاصر ع٤٨(١٤٠٧هـ) ص٧١.

(١٥) بدوي، د. عبدالرحمن. مصدر سابق. ص٣٠٢.

(١٦) ن. م، ص٣٠٣.

(١٧) ن. م، ص٣٠٦.

(١٨) عبدالباقي، محمّد فؤاد. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن. الصفحة(هـ).

(١٩) جحا، ميشال. مصدر سابق: ٢٥٩.

(٢٠) كان دي ساسيه المستشرق الفرنسي اللغوي على رأس المدرسة الفرنسية في باريس، بينما كان نولدكه في مدينة شتراسبورج على رأس المدرسة الألمانية، وطبع حركة الاستشراق سبعين سنة بشخصه، وكان المستشرق هو رجرونيه في مدينة لايدن بهولندا كذلك بالنسبة للاستشراق الهولندي.

(٢١) العالم. عمر لطفي. المستشرقون والقرآن: ٢٦.

(٢٢) ن. م: ٧٤.

(٢٣) ن. م: ٨٥ و١١٨.

(٢٤) بن نبى، مالك. مصدر سابق. ص٣٠٤-٣٠٦.

(٢٥) جحا، د. ميشال. مصدر سابق: ١٩٩.

(٢٦) العالم، عمر لطفي. مصدر سابق: ١٥٢.